جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة – الجزائر
EISSN: 2588-2384،ISSN: 1112-4377
المجلد: 29 العدد 03 السنة 2025
مجلة المعيار EL MIEYAR

من الكولونيالية إلى الدّيكولونيالية؛ المقاومةُ الثّقافيّة وتصفيةُ العلائق الاستعماريّة في رواية "شيطان على الصليب" للكاتب الكيني "واثيونغو نجوغي"

From Colonialism to Decolonialism: Cultural Resistance and the Eradication of Colonial Ties in the Novel "Devil on the Cross" by Kenyan Author Ngũgĩ wa Thiong'o.

محي الدين نسيبة[1]
n.mahieddine@univ-dbkm@gmail.com

تاريخ الاستلام: **2025/01/30** تاريخ النشر: **2025/06/01**
Received: 30/01/2025 **published: 01/06/2025**

ملخص المقال :

ترمي هذه المداخلة إلى البحث في واقع الدّراسات الثّقافيّة في إفريقيا وطرائق مُكافحة الاستعمار في مرحلته النّيوكولونياليّة، من خلال تعرية مُخلّفات الامبرياليّة الغربيّة وتصفية رواسبها المتضمَّنة في الثّقافة الجماهيريّة للشّعوب المحليّة، وهي المقولات الّتي نسعى إلى تمثُّل مضامينها من خلال رواية" شيطان على الصليب" للكاتب الكيني "واثيونغو نجوغي"، من خلال التركيز على تمثيلات المقاومة الثقافية للأصلاني الذي يسترجع في هذا العمل صوته ليعبّر عن نفسه ويُواجه الإمبرياليّة الغربيّة بلغته وثقافته المحليّة التي تهدف إلى تثمين الخُصوصيّة الجماهيريّة ووضع إفريقيا في المركز.

كلمات مفتاحية: تصفية الاستعمار، النيوكولونيالية، الهيمنة، الأصلاني، الإمبريالية.

Abstract:

This research aims to shed light on the effect of cultural studies and the ways to fight colonialism in its neo-colonial era through Exposing the remnants of Western imperialism And to purify its sediments included in the popular culture of local peoples, which are the sayings whose contents we seek to represent through the novel “Devil on the Cross” by the Kenyan writer Wathungu Ngugi, where the indigenous person in this work regains his voice to express himself and confront Western imperialism with his language and local culture that aims to value the popular specificity and place Africa at the center.

Keywords: Decolonization, neocolonialism, hegemony, nativism, imperialism**.**

(1) جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة (الجزائر)

مقدمة:

يقترنُ الفكر الدّيكولونيالي بجُملة الممارسات الثّقافيّة الّتي تبنّتها الأصواتُ المناهضة للإمبرياليّة الغربيّة في سعيها إلى تكريس مقولات الهيمنة والإخضاع وتحقيق مشروع الإلحاق المقرون بالمستعمرات التّقليديّة لأوروبّا، فبمجرّد أن استردّت شعوب أمريكا اللاتينية، الهند، وإفريقيا أراضيها حتى سعت- في حركة مُوازية- إلى مُحاولة استرجاع ذواتها وأصواتها من خلال المقاومة الثّقافيّةُ الّتي ترمي إلى خنق العُنصر الغربيّ واجتثاثه من الثّقافة المحليّة، مقابل إحياء ملامح الهويّة الذّاتيّة للأصلانيّ المحتقَر، بُغية الإسهام في عمليّة إعادة بناء هذه العوالم، ومنحها الصّبغة المحليّة التي أزاحتها عنها قوى الامبريالية من خلال الاستعمار، غير أنّ الواقع الثّقافي للشّعوب الّتي عاشت تجربة الاستعمار يطرح أكثر من تساؤُل في ظلّ هُجنة الثّقافات وانتفاء مُعطى النّقاء والأصالة. وعليه؛ ما هو مفهوم الدّيكولونياليّة؟ ما هو المشروع الّذي يُراهن عليه روّاد الفكر الدّيكولونيالي في مواجهتهم التّبعات الاستعمارية التي خلّفتها هيمنة الإمبرياليّة الغربيّة على الشّعوب الشّرقية؟ ماهي العلائق الكولونياليّة المترسّبة في ثنايا الثّقافة المحليّة للشّعوب الإفريقيّة؟ هل ستتمكن هويّة الذّات من اقتلاع نفسها من الواقع الذي فرضته مقولات العبد والسيد، وما خلفته أيضا من توصيفات دونيّة حبست الشّخصيّة الإفريقيّة في موقع التّابع أو الصّامت الذي لا صوت له؟ أم ستجد نفسها في مواجهة كولونيالية جديدة يحكمها منطق الاستعمار الثقافي الذي يحل محلّ الاستعمار التقليدي؟ وهل ستتمكن الثقافة المحلية من تصفية ذاتها والعودة إلى مرحلة ما قبل الاستعمار الذي يوافق عصور ما قبل الإقطاع والهيمنة؟

وللاشتغال على هذه القضايا اعتمدنا المنهج الوصفي التّحليليّ من خلال عرض تمثيلات واقع الهيمنة الثّقافيّة على الشّعوب الإفريقيّة الممثّلة من خلال الثقافة الكينيّة التي عرضت لها رواية "شيطان على الصليب" للكاتب "نجوغي واثيونغو"، وكذا البحث في معطياتها والخلفيّات أو المرجعيات التي أسهمت في تحقيق مفهوم الهيمنة، ثمّ تحليل الشّخصيّة الإفريقية والطّرائق المعتمدة في تصفية الاستعمار الغربي، وصولا إلى تجليّات ثقافة المقاومة وطرائق العودة إلى الذات، وهو ما يمكن حصره في المحاور التي عرضت لمفهوم الديكولونيالية وعلاقتها بفكر المقاومة، كيفية توظيف الأدب والفن لخدمة مشروع تصفية الاستعمار، ثمّ النيوكولونيالية وتحدي الشعوب الإفريقية في التخلص من الاستعمار والعودة إلى الذات.

الدّيكولونياليّة وتحقيق ثقافة المقاومة

نهضت السّياسة الكولونياليّة للغرب من المعطى الّذي يتوهّم أنّ الشّعوب الممثَّلة من قبل الرّجل الأبيض وثقافته الكونيّة هي طُفوليّةٌ، وقاصرة عن تحقيق الاستيعاب والمحاججة لافتقادها مفهوم العقلانيّة، فكان حريّاً على حاملي الحضارة تمثيلها والنّطق محلّها، وهذا ما سعى روّاد الفكر الدّيكولونياليّ إلى نقضه وتجاوُزه من خلال استرجاع صوت الذات وفاعليتها في التعبير؛ حيث ذهب "إدوارد سعيد" (سعيد، 2014، صفحة 18) إلى أنّ «مفهوم الأصلانيّ الصّامت الّذي لا صوت له، والّذي مثّله الغربُ نيابةً عنه، هو الآن يستعيدُ صوته وينطق ليمثل نفسه... ينطقُ

الأصلانيّ الّذي كان صامتاً في السّابق، ويمارسُ الفعل على أرض استعادها كجزء من حركة مقاومة شاملة». غير أنّ استعادة الصّوت ليس المنجَز الوحيد الّذي حقّقتهُ شُعوب المستعمرات، وإنّما قد سعت إلى إعادة بناء ذاتها من خلال العودة إلى الأُصول، إلى الثّقافة المحليّة الّتي تُعبّر عن أناها، إلى المرجعيّات الّتي حاولت الإمبرياليّةُ طمسَها وتغييبها، وهذا ما رمى إلى تحقيقه مفكّرون ثوريّون على رأسهم "فرانتز فانون"، نجوغي واثيونغو"، "والتر منيولو"، "حميد دباشي"، "مالك بن نبي"، وغيرهم من الكُتّاب المناهضين الّذين انطلقوا من مقولات الفكر الماركسي حول الاستلاب في السّياقات الاستعماريّة، ومفاهيم "أونطونيو غرامشي" في قضايا الهيمنة والتّابع، وكذا مقولات "لوي ألتوسير" حول الأجهزة الإيديولوجيّة للدّولة. (بوعزيز، 2023، صفحة 123)

1.2 "شيطان على الصليب"؛ الأدب في خدمة مشروع تصفية الاستعمار في إفريقيا

إنّ إعادة الأشياء إلى نِصابها، وإكساب العوالم الشّرقيّة ثقافتَها المحليّة المغيّبة ، ثمّ تصفيتها من العلائق الاستعماريّة، ومُحاولة تجاوُز جُملة التّرسُّبات الدّخيلة الّتي ضُمّنت فيها قسراً، هي الغايةُ الكُبرى الّتي راهن عليها رُوّاد هذا الفكر ومُؤيّدوه، وهو ما يمكن تمثُّله من خلال رواية "شيطان على الصّليب" –"كطايتاني موثارابايني"– للأفريقي الكيني "واثيونغو نجوغي"، الّتي كتبها بلغة "الكيكويو" المحليّة تعبيرا منه عن تطليقه اللّغة الإنجليزيّة من منطق كون اللغة هي حاملة ثقافة، بل هي ثقافةٌ في حدِّ ذاتِها، تسعى إلى تكريس مفهوم الهيمنة والسّيطرة لأنها وفق "نجوغي" (واثيونجو، تصفية استعمار العقل، 2011، صفحة 43) «تتدخّل في الكيفيّة الّتي يُدرك بها شعبٌ نفسَه وعلاقتَه بالعالم». فعوض أن يفهم الإفريقيُّ ذاتَه، ويعبّر عنها بلغته صار ينزاحُ إلى استعارة لُغة المستعمِر، وهو ما يترتّبُ عنه رُؤية نفسِه من الخارج عوض الدّاخل، وإسهامه بالتّالي في تكريس جُملة المقُولات الّتي ألحقتها الثّقافة الغربيّة بالتّابع الزّنجيّ، واتّخذتها ذرائعَ لتبرير هيمنتها الاستعماريّة على إفريقيا.

لذلك، فقد كان حريّاً بالكتابات المقاوِمة أن تردّ على الأصوات الكولونياليّة بلغتِها هي، وبالقيم الّتي احتقرتها الإمبرياليّة الغربيّة في تناوُلها الآخر –الشرقي دائما بلُغة الانتقاص والتّحقير، ثمّ تُموضع الإفريقيّ الأسود أدنى هذا السُّلم وكأنّه لم يخرج عن مُعطيات الحضارة فحسب، بل لم يلج رُقعة الآدميّة بعد، ولذلك كان لزاماً به استلام مشعل الرّجل الإنجليزيّ المخلّص حتى يتمثّل جُزءاً من قيم الحضارة، وهذا ما رمت الرّواية إلى تفكيكه، إنّ لإفريقيا لُغاتُها الّتي تمتلك القُدرة على التّعبير عن الإفريقيّ دون اللّجوء إلى التّبعات الاستعماريّة المتمثّلة في اللّغات الأوروبيّة، ثمّ إنّ لـ"كينا" من اللّغات واللّهجات المحليّة ما يكفيها لتنطِق وتُمثّل ذاتَها وتُعلن عن رفضها الولاءَ الغربيّ، وهذا ما انطلق منه "واثيونغو نجوغي" من خلال التّساؤُل الّذي أسّس وفقهُ الإشكاليّة الّتي بنى عليها كتابه "تصفية استعمار العقل"، حيث يستفهم عن جدوى توظيف اللُّغات الأجنبيّة في مشروع تصفية الاستعمار وبناء الثقافة الوطنية، و يرى بأنّ مُواصلة الكتابة بلُغة الاستعمار هي تصريحٌ بقبول هيمنته النّيوكولونياليّة، ومبايعتِها أيضاً رغم كونها وسيلة من وسائل الاسترقاق وإدامة التّبعيّة، لذلك يتساءلُ "نجوغي" (واثيونجو، تصفية استعمار العقل، 2011، صفحة 65) : «ما الفرقُ بين سياسيٍّ يقول إنّ إفريقيا لا بد لها من الاستعمار وكاتب يقولُ إنّ إفريقيا لابدّ لها من اللغات الأوروبية؟». إن "نجوغي" يُرافع لصالح إزاحة كلّ ما يقرنُ الثّقافة الإفريقيّة بنظيرتها الغربيّة، فرغم أنّ رواياتِه " "ماتيغاري مانيجرونغي" و شيطان على

الصليب، وكذا مسرحيّة "نغاهيكا ندانـدا" قد ترجمت فيما بعد إلى الإنجليزية، إلاّ أنّها جميعَها قد كُتبت بلغة "الكيكويو" الإفريقيّة، لأنّه وقف على مدى الانتقاص المقرون باللُّغات المحليّة في "كينيا" ومحاولة استبعادها، تكريساً للدّور الثّانويّ الّذي أوكل إليها في مرحلة الاستعمار التقليدي.

رواية "شيطان على الصّليب" هي تمثيل مرآويٌّ مُطابقٌ للمقولات الّتي ناضل من أجلها الكاتب خاصّةً في "تصفية استعمار العقل" بوصفه آخر كتاب له باللّغة الإنجليزية مثلما أشار إلى ذلك في مُقدّمة الكتاب نفسه، مُستحضراً في ذلك تجاربه مع الرّجل الأبيض، وطرائق إذلال التّلاميذ الكّينيين إذا ما مُسك بأحدهم وهو يستعمل "الكيكويو" في المدرسة أو في جوارها، بل إنّ الأمر يزيد عن ذلك إلى خلق طرائق يُجبَر فيه الطّفل الكينيُّ على الوشاية بزملائه الّذين يستعملون اللّغات المحليّة في التّواصل، ثم إنّ معيار التّفاضُل بين الطُّلاب والانتقاءات الحاصلة في الامتحانات النّهائية إنّما تقترنُ بمدى تمكُّن الطّالب من اللّغة الإنجليزيّة وإتقانه لها بصرف النّظر عن تخصصه، فالإنجليزيّة هي المعيارُ وهي الفاصلُ أو المحدّدُ لنجاح الكينيّ من رسوبه (واثيونجو، تصفية استعمار العقل، 2011، صفحة 60)، ولكنّ أين هي مقومات الهويّة الوطنيّة؟ أين هي تفاصيلُ أو ملامحُ الثّقافة المحليّة؟ أين هي الذّات الكينيّة من كلّ هذا المسخ؟ تجيبنا "وارينغا" عن كل هذه التّساؤلات من خلال الرّواية–موضوع الدراسة–"وارينغا" الفتاة الكينية الّتي غفلت عن جمالها الإفريقيّ وخُصوصيّتها في الانتماء إلى البشرة السّوداء، وسعت إلى اللّهث وراء حرق شعرها بالمصفّفات، أو تشويه بشرتها بكريمات التّبييض حتى تبدو أقرب إلى النّموذج الأبيض، وكأنّ معايير الجمال مُقتصرةٌ على الذّات الأوروبيّة فقط، إنّ "وارينغا" قد قضت على ملامح الجمال فيها لحظة رأت نفسها قبيحة وقرنت قبحتها بالسواد، وهو ما تسبّب في تقصف شعرها، وامتلاء بشرتها بالبقع، حتى اختيار لباسها لم يقترن بمدى موافقته شكل جسمها لأنّ الغاية الكبرى لوارينغا هي أن تبدو مثل الفتيات الأوروبيات. (واثيونجو، تصفية استعمار العقل، 2011، صفحة 34)

"وارينغا" بوصفها نموذجاً للمرأة الإفريقيّة الّتي نبذت ذاتَها وتنصّلت منها، لا لشيء سوى لكونها لم تقوَ على مُعادلة الشّخصيّة الأوروبيّة استناداً إلى اعتبارها النّموذج الّذي ينبغي أن يُحتذى، أو المعيار الّذي يُقاس من خلاله مدى جمالُ أو قبح الذّات الكينيّة، إنّه إسقاطٌ تمثيليٌّ أو انعكاسٌ مباشرٌ للشّخصيّة الإفريقيّة في علاقتِها بذاتها وبالآخر الغربيّ، لأنّها «عُلّمت أن تنظر إلى أوروبّا(بوصفها) مُعلّما ومركزاً لحضارة الإنسان وأن تنظر إلى نفسها باعتبارها تلميذاً، هكذا أصبحت الثّقافة الغربيّة مركز العمليّة التّعليميّة في إفريقيا، ودُفعت إفريقيا إلى الخلف» (واثيونجو، تصفية استعمار العقل، 2011، صفحة 35)، وهو ما يبرّر النّظرة الدّونيّة للإفريقيّ، ليس من قِبل الغرب الرّأسماليّ فحسب، بل من قِبل الذّات الإفريقيّة نفسِها مثلما تمثّلنا ذلك مع "وارينغا" ، وكأنّ هذه الذّوات قد فقدت كلّ ما يقرنها بنفسها وبخصوصيّتها الثّقافية، فكرّست مفهوم "التابع"، وعمدت إلى رؤية ذاتِها من منظور الآخرين، لذلك فهي لا ترضى عن نفسها، وتبقى في حلقة لا تعرف القرار من مُحاولات اللّهث وراء تأسيس ذاتِها استناداً إلى النّموذج الّذي ترمي اللّحاق به، وهذه واحدةٌ من تبِعات الاستعمار الغربيّ وهيمنته الكولونياليّة تُجاه أصحاب البشرة السّوداء؛ لقد جاء في "تصفية استعمار العقل (واثيونجو، تصفية استعمار العقل، 2011، صفحة 18) «أن الأثر الّذي تُحدثه قُنبلةٌ ثقافيّة هو إبادة إيمان شعبٍ بأسمائِه ولُغاته وبيئته، وإرثه النّضالي، ووحدته، وقدراته، وفي النّهاية إبادةُ

إيمان شعبٍ بنفسه». وهي نتيجة حتمية لسياسة المسخ المنتهجة من قبل الاستعمار الإنجليزي في "كينيا"، حيث عمد إلى تلقين الطّفل جُملةً من المقولات والأفكار الّتي تُعلّمه قَبول دوره التّابع في بلاده، وأن يرضى بوضع الاستعمار ويسعى إلى تمثُّل أو محاولة تقليد ملامح الهويّة الأوروبيّة الّتي لقّنها إيّاه المعلّمون الإنجليز، وهذا ما دفع إلى ميلاد جيلٍ مغتربٍ عن نفسه ووطنه، جيل أكبرُ همّه أن يرى نفسه في زيّ الآخر الذي ينظر إليه بمنظور الهيبة والتّعظيم. غير أن المثير للاستغراب فعلاً هو أن تستمر المنظومة التّعليميّة نفسُها في "كينيا" بعد تحقيق الاستقلال، أليس من الطّبيعيّ أن تُستبدل البرامج التعليميّة والمنظومات التّربويّة الموروثة عن الاستعمار؟ هل من المنطقيّ أن يُواصل الشّعب الكينيّ السّير وفق الكيفيّة الّتي انتهجها له الإنجليز؟ أليست هذه صورةٌ أخرى من صور تكريس الاستعمار؟ وكأنّ العقل الكينيّ غير مُنجزٌ ولا مكتمل، وليس بإمكانه خلقُ أو تأسيس برامج تُوازي نظيرتها الغربيّة؟ هي كلُّها قضايا ناضل من أجلها مفكّرو الدّيكولونياليّة في إفريقيا وعلى رأسهم "واثيونغو نجوغي" الّذي رافع من أجل إعادة إفريقيا إلى المركز من خلال خلق مفهوم الوعي بمقوّمات الهويّة الإفريقيّة بملامح التّقاليد والثّقافة المحليّة، وهي القضايا الّتي استنطقها من خلال شخصيّة "غاتويريا" بوصفه نموذجاً لصورة الذّات المؤمنة بخصوصيتّها والرّافضة لكلّ إلحاقٍ يقرنُها بالآخر الإمبرياليّ، يتساءل "غاتويريا" عن مآل الشخصية الكينية في الرواية: (واثيونجو، شيطان على الصليب، 2022، صفحة 13) «أين هي لغاتنا الوطنية الآن؟ أين الكتب الّتي كُتبت بلغاتنا الوطنيّة. أين هو أدبنا الخاصّ؟ أين هي حكمةُ آبائنا ومعرفتهم الآن؟ أين هي فلسفة آبائنا...قصصُنا ألغازُنا، أغانينا، عاداتُنا، تقاليدنا، كلّ شيء عن تراثنا الوطنيّ الذي ضاع منا». لقد غُيّبت الثّقافة الوطنيّة، وقُمعت تفاصيلُ الحياة الجماهيريّة للشّعوب المحليّة لأنّها وقعت ضحيّة منظورٍ انتقاصيّ ألحقَها بالشُّعوب البدائيّة أو شعوب ما قبل الحضارة، وفتح المجال-في مقابل ذلك- أمام الثّقافات الوافدة والدّخيلة كي تحتلّ موقع الصّدارة من الواقع الكينيّ الجديد، ولم يكن لهذا المشروع أن يتحقّق في "كينيا" لو كانت القاعدةُ الجماهيريّة مُؤسّسةً بالكيفيّة الّتي تُؤهّلها لتسيير واقعها بنفسِها، استنادا إلى خصوصيّتها وموقِفها من الآخر الإمبرياليّ، ثمّ طبيعة علاقتِها به، فالذّهنيّاتُ المعاصرة لم تتخلّص بعدُ من مخلّفات الاستعمار، ولا تزالُ مُكبّلةً بحبال وهميّة تُوجّهها وتُؤطّرها بالكيفيّة الّتي تراها الإمبراطوريّةُ الغربيّةُ مناسبة.

2.2 النّيوكولونيالية وتحدّي الشعوب الإفريقية في التخلص من الاستعمار

إنّ هذه التّبعيّة الّتي تشكوها الشّعوب الشّرقيةُ في مرحلة ما بعد الاستعمار هي تمثيلٌ استنطاقيٌّ لما أُطلق عليه بـ"النّيوكولونيّاليّة" أو الكولونياليّة الجديدة، حيث تنزاحُ القوّةُ المستعمِرة عسكرياً، لكن هيمنها تظلُّ قائمةً من خلال جملة المؤسّسات التابعة الّتي تضمنُ بقاءَها واستمرار فلسفتها، حيث ترضى لنفسها الوقوف بوصفها كلاب حراسة على مصالح القوى الرّأسماليّة في المنطقة مقابل نيل بعض الامتيازات والاستحقاقات، وهي المؤسّسات الّتي مثّل لها "نجوغي" من خلال الشّخصيّات الحاضرة أو المُؤطرة لاجتماع "احتفاليّة الشّيطان"، الذي وقفت على تنظيمه "مُنظّمة النّهب والسّرقة الحديثة في إيلموروغ" بُغية الاحتفاء بالضّيوف الأجانب الّذين يقبضون على حاضر "كينيا" ومستقبلها، والإقرار من ثمّ بقبول هيمنها الدّائمة والمستمرة، وكأنّه تعويضٌ نفسيٌّ من قِبل الإفريقيّ-التّابع عن ذنب

طرد الكولونياليّة الغربية في السابق، ومصالحةٌ ضمنيّةٌ معها تضمن إحياء تيمة التبعية وتكريسها في ثقافة الجماهير والشّعوب الإفريقيّة التي لم تُعايش الاستعمار في مرحلته التّقليديّة.

إنّ من يُصفّق اليوم لمفهوم "النّيوكولونياليّة" في "كينيا" حسب "واثيونغو" هي المؤسّسات المحليّة الّتي مازالت تنظر لنفسها بوصفها "تابعاً" لا يمكنه إثباتُ ذاتِه إلاّ من خلال الاستناد إلى المؤسّسة الامبرياليّة للغرب، لكنّ الغريب في الأمر أنّ الإفريقيّ –التّابع هو من يصنع حُضورها وهيمنتها برضوخه وعِناده المستميت نحو التّمسُّك بكلّ ما يربطه بالاستعمار بشقيه (التقليدي والثقافي) وهو الوضعُ الّذي مثّل له "واثيونغو" من خلال صُورة المنام الّذي زار "وارينغا" في إغفائها يوم حضور "احتفالية الشيطان" حيث رأت على الصّليب شيطاناً أبيض (يرمز إلى الإمبريالية الغربية) يُصلب من قِبل الطّبقات العاملة والمقهورة في "كينيا"، وحينما أوشك على الهلاك سارع إلى إنقاذه وإنزاله من الصّليب أُناسٌ سود (ينتمون إلى الواقع الإفريقي) لكنهّم يرتدون ربطات العنق والبدلات الفاخرة، (واثيونجو، تصفية استعمار العقل، 2011، صفحة 183) وهو ما يحيل إلى حقيقة أن تغييب الثّقافة الوطنيّة لصالح نظيرتها الغربيّة مقرونٌ برغبة شُعوب العالم الشرقيّ وبارتباطهم وحنينهم غير المنطقي إلى ممثّلي الاستعمار، ومما جاء في الرواية في توصيف هذا الوضع (واثيونجو، شيطان على الصليب، 2022، صفحة 85) أنّه حينما علم العبيد والخدم المخلصون بـ«أن سيدهم ومولاهم على وشك الرحيل مزّقوا ملابسهم ولطخوا أجسادهم بالرّماد، وجثوا على رُكبهم وهم يصرخون: كيف يمكنك الرّحيل بعيدا وتركنا هنا كاليتامى». إنّه ارتباطٌ فُصاميٌّ لا مُبرّر له غير كونه عقدةٌ تاريخيّةٌ مُستديمةٌ للإفريقيّ الأسود تُجاه الرّجل الأبيض ومركزيّته، فهو لم يتعوّد هذه التّبعيّة أو الطّاعة المذلّة فحسب، بل صار يستلذّها ولا يرى نفسه مُؤسّساً إلّا من خلالها. وتطفحُ الرّواية بتمثيلات كثيرة تتضمّن جميعها هذه الرُّؤيا سواءٌ من خلال "وارينغا" الّتي عرضنا لها، أو من خلال والد "غاتويريا" الّذي اتّخذ لنفسه جملة من الأسماء الأجنبيّة حتى يمنح نفسَه المسوّغ بالشُّعور بأوروبّيته المصطنعة أو بكونه صار في رُتبةٍ أعلى من الإفريقيّ الأسود، لا لشيءٍ سوى لكونه صار يُشابه نظيرهُ الإنجليزيّ في مرحلة الاستعمار، فغيّر تفاصيلَ حياته، نمطَ عيشه، وقام بطرد ابنه لأنّه تشبّث بتفاصيل الحياة المحليّة لشعوب "كينيا"، وحتى حينما قبِل عودته إلى المنزل بعد سنوات طويلة قد اشترط في حفل استقباله رفقه خطيبته زيّاً خاصّاً بالضّيوف؛ الرّجال بالبدلات السّوداء وربطات العُنق، أمّا النّساءُ فبالقبّعات والقفّازات والفساتين الطّويلة، حتى يُخيّل للرّائي بأنّه احتفال أوروبيٌّ لولا البشرة السّوداء الّتي تنسف هذا الاعتقاد. ألا يمتلكُ الكينيُّون زيّاً خاصّاً بثقافتهم المحليّة أيّام المواسم والاحتفالات أم أنّها حقّا عقد اللّحاق بالرّجل الأبيض؟.

وهو الموقف نفسُه الّذي نلمحُه مع الطّبقة –الرّأسماليّة –في "كينيا" حيث تنصّلت من كلّ ما يربطها بالثّقافة المحليّة، فيُلفي دارسُ الرّواية حضور هذه الطّبقة في مواقع متقدّمة من بناء الثقافة الوطنية وتمثيلها، غير أنّ الملاحَظ على هذه النّماذج أنها لا تمتلك أيّ ارتباطٍ أو صِلةٍ ذاتيّة مع الثّقافة الإفريقيّة، فهم يتحدّثون الإنجليزيّة ويرفضون تعلُّم أبنائِهم

اللّهجات المحليّة، ولكن لا يُمانعون من التّحدُّث بها عبر أنوفهم حتّى يبدون مثل الأجانب أو القساوسة الطّليان. (واثيونجو، شيطان على الصليب، 2022، صفحة 163)

إنّ حُرّاس الكولونياليّة الجديدة هم الواقفون خلف تغييب الثّقافة المحليّة من خلال إقصائها والتّضييق على داعميها من المناضلين ضد الهيمنة والاستعمار، وهذا ما يتجلّى من خلال غلق "مركز كاميريثو الاجتماعي التربوي الثقافي"سنة 1982، حيث شهدت هذه الفترة منع كلّ النّشاطات الثّقافيّة المسرحيّة التي تروّجُ لتقاليد وطنيّة للمسرح الكيني مثل الأغاني الشعبيّة والملحميّة، وكذا الرّقصات القديمة على شاكلة "المومبوكو"، "الموثيريغو"، و"الموكونغوا". (واثيونجو، تصفية استعمار العقل، 2011، الصفحات 114-115) حتّى تظلّ الثّقافة المحليّة مستبعدةً وتفسح المجال لاستمرار الهيمنة الغربية في مرحلتها النيوكولونيالية، لذلك فحسب واثيونغو (واثيونجو، تصفية استعمار العقل، 2011، صفحة 195) « أصبح البحث عن اتجاهات جديدة في اللغة والأدب والمسرح والشّعر والقصّة هو في إفريقيا جزء لا يتجزأ من النّضال الشّامل الّذي يشنُّه الشّعبُ الإفريقيُّ ضدّ الاستعمار في مرحلته النيو-كولونيالية» .وهي المقاومةُ التي لن تتمّ إلاّ من خلال إحياء الثّقافة المحليّة، وإعادة دورها المغيّب إلى الواجهة، وكذا مُحاربة الثّقافة الغربيّة في إفريقيا الّتي لا تنكفئ عن السّعي في تأطير الجماهير والهيمنة على العقل الكيني واستعباده في مشروعها التّاريخي نحو الإخضاع والإلحاق.

تجربة تصفية الاستعمار في الرواية واسترجاع وعي الذات الإفريقية بذاتها

1.3 شعوب الهامش ترد على المركز وإعادة الأشياء إلى نصابها

وقف مُناهضو الهيمنة الغربيّة من مُفكّري إفريقيا ومُناضليها -خاصّة المشتغلين في حقل الدّيكولونياليّة أو تصفية الاستعمار على أنّ الوعي بخُصوصيّة الذّات وضرورة إعادة إحياء مُقوّمات الهويّة الوطنيّة هي أهداف لن تتحقّق إلّا من خلال قطع روابط الإلحاق والتّبعيّة بثقافة الغرب الرأسمالي، لأنّها البديل الوحيد لإعادة الدّور التّاريخي لإفريقيا واسرجاع ذاتها المغيَّبة، فكما يقول "واثيونغو نجوغي" (واثيونجو، تصفية استعمار العقل، 2011، صفحة 12) «إن الإشكالات الراهنة لإفريقيا هي نتيجة وضعٍ تاريخيّ، كما أن الحلول أيضا ليست مسألة قرار شخصيٍّ بقدر ماهي تحوُّل اجتماعيٌّ أساسي لبُنى مجتمعاتنا يبدأ من قطيعة حقيقية مع الاستعمار» ، لذلك فهي بحاجةٍ إلى اعتماد مشروعٍ ثقافيٍّ واسعٍ يمسُّ كلّ أطياف ومُكوّنات الشّعوب الإفريقيّة؛ مشروعٌ يتأسّسُ على إعادة الثّقة للشّخصيّة الإفريقيّة بذاتها، والاقتناع بخُصوصيتها الّتي تبني مفهوم العرق الأسود وتُميزه بعيدا عن النّظرة الدّونية الّتي زرعتها مقولات الفكر الغربيّ في ذهنية أصحاب البشرة السوداء.

تنطلقُ رحلة استرجاع وعي الذات الإفريقية بذاتها في الرواية مع "وارينغا" بعد طردها من العمل واستماتتها في البحث عن منصب جديد دون جدوى، فالمؤسّسات الكينية تهيمن عليها الرُّوح الأجنبيّة من خلال الشّركات متعدّدة

الجنسيات، أليس من حق المرأة الكينية العثور على منصب عمل دون أن تخضع لمساومة كلاب حراسة الإنجليز في إفريقيا؟ هل من المعقول أن تقترن وظيفةُ المرأة الكينية بالطبخ والسكريتارية أو حتى العهر لتثبت ذاتها؟ والأدهى من هذا هل يضطرّ الكيني لطلب تصريح التّجوّل في "نيروبي" وكأنه مازال في مرحلة الاستعمار؟ هي كلُّها تساؤُلات أسهمت في وقوف الفتاة على واقعٍ جديد لا يختلف عن واقع كينيا –ما قبل الاستقلال، خاصة بعد حضورها احتفاليّة الشيطان وتعرُّفها على أساليب الهيمنة الحديثة التي تكرس دائما مفهوم الأسود التابع، أو الزنجي المؤطَّر، لقد وقفت "وارينغا" على حقيقة أن بوصلة الخروج من هذا الوضع لا يقوم إلّا من خلال "المعرفة"، أي إنتاجُ عناصر المعرفة عوض استيرادها ، أليس بمقدور العقل الإفريقي التفكير وإنتاج نموذج معرفي يوازي نظيره الغربي، لماذا تظلّ الأصوات الإفريقية حبيسة النّظرة الاستعلائية التي تتوهّم وفقّ حميد دباشي" (دباشي، 2015، صفحة 40) «بأننا معشر الملونيّن لا يُمكننا التفكير لأننا ملونون وبالتّالي فإنّنا جزء من المعرفة» وكأنّ الإفريقيّ قاصرٌ عن التّفكير، لا يمتلكُ أدوات الإنتاج والبناء، وهو ما أسّس لإخضاعه في السّابق ونهب ثرواته، ويسوّغ اليوم لإدامة تلك الهيمنة من خلال الكولونياليّة الجديدة أو الاستعمار الثقافي الّذي يسعى إلى تغييب خُصوصيّة الأطراف الّتي تدور حول المركز الغربي وتصنع ألَقه الشّخصيّ.

ألا ينبغي للشُّعوب الإفريقيّة أن تسترجع أصواتَها لتُعبر هي عن ذاتِها؟ وتُسهم في صناعة المعرفة الّتي تحتاجها لبناء مُستقبلها استناداً إلى خصوصيّتها هي، وهذا ما يتساءل عنه صاحب ما بعد الاستشراق (دباشي، ما بعد الاستشراق، المعرفة و السلطة في زمن الإرهاب، 2015، صفحة 11) «هل سنبقى ذواتاً مُنفعلةً يتوجّبُ عليها دفعُ التُّهمة أمام الذّات العارفة المحاورة» ؟ وكأنّنا مُتّهمون نُحاول المرافعة عن براءتنا دون الاستناد إلى رُؤيا واضحة تُمكّننا من تحقيق المطلوب؟...إنّها التّساؤُلات الّتي أجابت عنها "وارينغا" إجابةً ميدانيّة من خلال مواصلة دراستها الجامعيّة في تخصُّص الهندسة الميكانيكيّة، صارت الفتاةُ خبيرةً في تشكيل الحديد ومُحرّكات المركبات، وقادرةً على تفكيك مُحرّكات الاحتراق الدّاخلي وإعادة تركيبها وصيانتِها (واثيونجو، شيطان على الصليب، 2022، الصفحات 32-33) مُحقّقةً فكرة أنّ المرأة الإفريقيّة قادرةٌ على الاضطلاع بالكثير من المهامّ الّتي استبعدتها منها الثقافةُ المكرَّسة، وقرنتها بوظائف دونيّة ترتبط في أساسها بتلبية رغبات الرّجل الجنسيّة (المدير في الرواية) أو الطّرد في حالة رفض هذا الاستغلال .

"وارينغا" اليوم بعد تحقيقها التّحوّل الأوّل في حياتها من وظيفة السّكريتارية إلى الهندسة الميكانيكيّة تسترجع ذاتَها وتتصالح مع نفسها، لأنّها وقفت على خُصوصيّة الجمال الإفريقي. إنّ البشرة البيضاء ليست دائماً معياراً للجمال، لذلك فقد غيّرت هيئتها الخارجيّة لما يتماشى وخُصوصيّة الثّقافة الإفريقيّة؛ لقد أقلعت عن تمشيط شعرها بالمصفّفات الحديديّة، وتحوّلت إلى جمعه في ضفائر متناسقة يزيّنها وشاحٌ محليٌّ تُلقيه المرأة الإفريقيّة على رأسها، كما أنّها غيّرت

أزيائها المعتمَدة من خلال اقتناء أو خياطة ما يوائم جسدها هي وليس ذوق الآخرين وتوجيهاتهم المقترنة في مجموعها بالنّموذج الغربي. (واثيونجو، شيطان على الصليب، 2022، صفحة 331)

نجحت "وارينغا" في تحقيق القطيعة مع الاستعمار من خلال التحوّل الجذريّ الّذي رسمتهُ لنفسها واختارته عن قناعة ووعيّ تام، وهو الخيارُ الّذي يتمظهر أيضا في كيفيّة انتقاء زوجها بوصفه أحد المقاومين الثّقافيين المشتغلين على إعادة إحياء الثقافة المحليّة الكينيّة في مجال الفنون، واستمر تكريسُ الانتماء المحليّ في تفاصيل حياة الفتاة حتّى في يوم زفافها، حيث رفضت ارتداء الثّوب الأبيض الذي يحيل إلى الثقافة الغربية، واختارت أن تُعوّضه بزيّ "الكيكويو" الموافق للثّقافة الإفريقية المحلية، بل حتّى أقراطها كانت من أعواد الثّقاب الخشبيّة الّتي تتميّز بها الثّقافة الشّعبيّة في "كينيا" (واثيونجو، شيطان على الصليب، 2022، صفحة 369)

إن الانعكاسات الثّقافيّة أو التّحوّلات الفكريّة الّتي مسّت الذّهنيّة الإفريقيّة في الفترة الّتي أعقبت تجمُّع "احتفاليّة الشّيطان" في الرّواية، قد تمكّنت من التّأسيس لجيلٍ إفريقيٍّ جديد صنعهُ اتّحاد الطّلبةُ بوصفه حامل شُعلة تصفية مُخلّفات الاستعمار في "إيلموروغ" و"كينيا" كلها، وهو جيلٌ يحمل على عاتقه التّسلّح بقيم وعي الذّات بذاتها؛ إحياءُ الجذور وإعادةُ إفريقيا إلى مركز الأشياء. يقول واثيونغو نجوغي (واثيونجو، تصفية استعمار العقل، 2011، صفحة 174): «..ولأن إفريقيا في مركز الأشياء ليست مُلحقة أو تابعة لبلدان وآداب أخرى، فإنه يجب النظر إلى الأشياء من منظور إفريقيّ». إن مقاربةُ الواقع الكينيّ الحديث ينبغي أن يستند إلى منظورٍ خاصّ يُفتح فيه البابُ أمام المنجز الإفريقيّ ليحمل مسؤوليّة بناء مستقبل إفريقيا كلها، واقعٌ تحظى فيه الطّاقاتُ المحليّة بتقدير مُساهمتها البحثيّة في العلوم والأنثروبولوجيا والصنّاعات المحليّة.

2.3 إحياء الثقافة المحلية وإعادة الدور لفولكلور الشعوب الأفريقية

إن هذه المقاربة الحديثة للواقع الثّقافي في إفريقيا هو ما أراد الكاتب توضيح تفاصيله الميدانيّة وحقول الاشتغال فيها، من خلال جهود "غاتويريا" المتمثّلة في إعادة إحياء الفولكلور، وكذا إعادة دور الآلات الموسيقية المغيّبَة في "كينيا" بوصفها تمثيلٌ فنيّ مزدوجٌ لتفاصيل حياة الشُّعوب الرّعويّة ورحلاتها في عصر ما قبل الإقطاع، (واثيونجو، شيطان على الصليب، 2022، صفحة 97) وكأنّه استردادٌ زمنيٌّ بالذاكرة إلى الثّقافة المحليّة الأصيلة قبل أن تتعكّر برواسب ومخلّفات الاستعمار، وهذا هو الفرق بين المفكرين الثقافيّين الّذين يتبنّون مقولات الدّيكولونيالية ونظرائهم من مؤيّدي الفكر ما بعد الكولونيالي؛ فإذا كان رواد هذا الأخير(إدوارد سعيد، هومي بابا، غياتري سبيفاك، شينوا أتشيبي) يقفون في مُعترك المقاومة من خلال تبنّي مقولة الهويّة العكِرة، الّتي ترمي إلى استغلال التّداخل الثّقافيّ النّاتج عن عمليّة الاستعمار، وتطعيم الثّقافة الغربيّة بعناصر محليّة أو العكس، بوصفها طريقة من طرائق المقاومة الثّقافية وهذا ما نلمسه مع "اللّغات البيدجين" الّتي تقترن في خلقها بمفهوم الهجنة الثقافية القائم على تسفيه مقولات أصالة الأعراق واللغات، وهي المرجعيّةُ الّتي تُمثّل في الحقيقة نواة المركزيّة الغربيّة في نظرتها الدّونية إلى الملوّنين، وعلى العكس

من ذلك فإنّ نظراءهم من مؤسّسي الدّيكولونيالة يسعون إلى إحداث قطيعةٍ تامّةٍ مع الاستعمار من خلال اجتثاث مُخلّفاته، وتصفية كلّ الرّواسب الّتي تشرّبتها الثّقافة المحليّة أو أُقحمت فيها قسرا، وبالتّالي تحقيقُ حلم العودة إلى الثّقافة المحلية في العصور التي تسبق مرحلة الإقطاع والاستعمار، وهذا سعى"غاتويريا" إلى تحقيقه في مجال الفنون من خلال تأليف موسيقى وطنيّة أصيلة تقوم فيها الأوركسترا بضم الآلات الموسيقية لجميع الأعراق والثقافات الكينيّة الشعبية قبل فترة الاستعمار، (واثيونجو، شيطان على الصليب، 2022، صفحة 97) حتى تتمكّن من تمثيل الوحدة الكينيّة القائمة على التّنوُّع، والعراقة، والتميُّز، بعيداً عن مقولات الإلحاق بالمؤسّسات الغربيّة وثقافتها القائمة على الإزاحة والهيمنة.

خاتمة:

ما نخلص إليه في الأخير هو أنّ تيّار الدّيكولونياليّة في إفريقيا قد أخذ على عاتقه مسؤوليّة الدعوة إلى تحقيق المفاهيم الّتي يتأسّس من خلالها هذا التّوجه، سواءٌ من حيث اجتثاثُ العلائق الثّقافيّة المقرونة بالاستعمار الغربيّ، أو إعادة الرّوح الإفريقيّة إلى تفاصيل الحياة المحليّة وثقافتها الجماهيريّة، وهو المعطى الّذي يتحقّقُ من خلال النّظر إلى إفريقيا بوصفها مركزاً يُضاهي أو يُوازي نظيره الغربيّ، لا تابعاً أو مُلحقاً بكولونياليّة الرّجل الأبيض، مقاومةٌ ثقافيّةٌ ترمي إلى تحقيق القطيعة التّامّة مع كل ما يُحيل إلى عصور الإقطاع والاستعباد، وهي مرحلةٌ يتواجهُ فيها مركزان ثقافيّان يحاول كلُّ واحد منهما إزاحة الآخر واجتثاثه، فالرّوح الزّنجية حسب "مينيولو، ونجوغي" قادرةٌ على الوقوف أمام نظيرتها في أوروبّا ومجابهتها، لأن الثّقافة الإفريقيّة لها خصوصيتُها وطاقاتها اللّغويّة، الثّقافية، والاقتصاديّة الّتي تُؤهّلها لاستعادة صوتها، وتحويل الأصلانيّ التابع إلى موقع الرّيادة والصّدارة، وهذا ما وقفنا عليه في الرّواية من خلال الثّورة على كلّ ما يحيل إلى الكولونياليّة الجديدة والاستعمار الثقافي، في مقابل الدّعوة إلى إحياء ثقافة الجماهير الشّعبيّة وترسيخ حضورها في بناء شخصيّة الذّات وهويّتها المحليّة.

ولعلّ من أهم التوصيات التي نقترحها بعد هذه الدراسة هي ضرورة الاهتمام بتمثيلات الثقافة المحلية للشعوب الإفريقية، مع ضرورة التركيز على إحياء وإبراز ملامح الهوية الوطنية للذات بغية التخلص من عقدة النقص التي خلقتها المركزية الغربية وكرستها فيما بعد هيمنتها الكولونيالية من جهة، واستصغار الذات الإفريقية لذاتها من جهة أخرى، لذلك فإن الاستراتيجية الثقافية لمواجهة النيوكولونيالية وأدوات الهيمنة الإمبريالية هي ضرورة الاعتناء بمقومات الهوية الوطنية مع ضرورة الانفتاح على الآخر ومحاورته من موقف القوة لا الضعف والانتكاس.

المصادر والمراجع:

بوعزيز, و. ب .(2023). بؤس النظرية .الجزائر: دار ميم.

دباشي, ح .(2015). ما بعد الاستشراق، المعرفة و السلطة في زمن الإرهاب .ميلانو: منشورات المتوسط.

دباشي, ح .(2015). هل يستطيع غير الأوروبي التفكير .ميلانو: منشورات المتوسط.

سعيد, إ .(2014). الثقافة و الإمبريالية .بيروت: دار الآداب.

واثيونجو, ن .(2011). تصفية استعمار العقل .دمشق: دار التكوين للتأليف و الترجمة و النشر.

واثيونجو, ن .(2022). شيطان على الصليب .دبي: إصدارات روايات.

References:

-Bouaziz, W. B. (2023). *The Misery of Theory*. Algiers: Dar Mim.
-Dabashi, H. (2015). *Post-Orientalism: Knowledge and Power in the Age of Terrorism*. Milan: Mediterranean Publishing.
-Dabashi, H. (2015). *Can Non-Europeans Think?* Milan: Mediterranean Publishing.--
-Said, E. (2014). *Culture and Imperialism*. Beirut: Dar Al-Adab.
-Wa Thiong'o, N. (2011). *Decolonising the Mind*. Damascus: Dar Al-Takween for Publishing and Translation.
-Wa Thiong'o, N. (2022). *Devil on the Cross*. Dubai: Rawaayat Editions.